آثار مستشفيات العرب

الدكتور سامي حمارنه
عضو الكلية الجراحية الاميركية وأحد
أساتذة العلوم الجراحية بجامعة بيروت الاميركية

من تصفح تاريخ البارستانات العربية لا يسعهُ الا أن يعترف بانها مظهر باهر من مظاهر الثقافة العربية ومفخرة من مفاخرها . وكان اول ما اقتبس العرب بهذا النوع من العمران قبل الاسلام فان الحرث بن كلده الثقفي زوج خالة النبي العربي الكريم وابنهُ النضر قد رادا البلاد في طلب العلم . فوصلا في ايام كسرى أنو شيروان الى جنديسابور من اعمال فارس وتعلما الطب في بارستانها الذي كان يديره نطس اطباء الفياذرة[٩] . ولا شك في ان الكثيرين من العرب الذين جاءوا بعد الحرث وابنه قد حذوا حذوهما فأمّوا بادارة البارستانات ونهموا منافعها واغراضها في تخفيف آلام البشرية . فعادوا الى بلادهم واسسوا في اول فرصة سنحت لهم معاهد شبيهة بها

مما يؤسف له انهُ لم يصلنا الا القليل عن وصف هذه المعاهد واساليب ادارتها وغير ذلك من اخبارها التي نتشوق اليوم الى معرفتها . ولكن ما نعرفهُ عنها كاف لينبئنا بان الخلفاء والحكام واولي الامر قد ادركوا ما لهذه المعاهد من الشأن مما دفعهم الى بذل العناية في تشييدها والانفاق عليها بسخاء فائق والسعي في توفير ما يلزم لها لتؤدي الغرض المقصود منها . ففاقت اذ ذاك كل ما سبقها من المعاهد وصارت موضوع اعجاب الكثيرين من الرحالين الذين أفاضوا في مدحها في كتب اسفارهم . وتشيد اكثرها في المدن الكبيرة الآهلة العامرة كمكة والمدينة وبغداد ودمشق وطرابلس وحلب وانطاكية والقاهرة ومدن المغرب والاندلس .

وبذلت العناية التامة في انتقاء المواقع الصحية الملائمة . فمن جميل ما ورد في هذا الصدد « أن عضد الدولة لما همّ بانشاء البارستان العضدي ببغداد استشار الرازي في الموضع الذي يجب

(٩) المقتطف : جرى المؤلف على الطريقة المتبعة بين علماء الغرب في الاسناد فوضع بياناً في آخر رسالته بالمراجع التي اعتمدها ورقماً لكل مرجع ، لكي تتفادى التكرار في الحواشي ، فالرقم الذي يظهر في المتن يشير الى كتاب معين في بيان المراجع ، وهو بيان مستفيض في خدمة هذا البحث النفيس

ان يبني فيه . فأمر الرازي بعض غلمانه ان يعلق في كل ناحية من نواحي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغير ولم ينهك (يختر) فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى فيها المارستان وكان كذلك » اه [٣٢] . « ولما ملك صلاح الدين الاسكندرية وأستولى على القصر وكان فيه قاعة بناها العزيز بن المعز في سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) فجعلها صلاح الدين مارستاناً لانه قيل أن فيها طلسماً يمنع دخول النمل اليها » اه [٣٣]

اختلفت انواع المارستانات باختلاف الغاية التي وضعت لها . فان « الوليد بن عبد الملك كان اول من اتخذ مارستاناً في دمشق وذلك سنة ٨٨ هـ . (٧٠٦ م) حين كانت الحاجة ماسة الى الشفاء ملاجيء لحبس المجذمين فيها وخوفهم أن يخرجوا على الناس . فأقام لهم هذا المأوى وأجرى عليهم الارزاق » . اه [١]

وكان للعرب عناية فائقة بالمجاذيب والزمنى والعجزة والعميان فخصصوا المشاهد بابوابهم ففي فاس وقف سيدي ابي العباس السبتي للعميان والزمنى وفي مراكش وقف سيدي فرج لابواء المجاذيب والعناية بهم [٢] . فان الفرق بين معاملة العرب لمن اخنى عليهم الدهر وأوقع بهم الرزايا والمصائب من معاملة الافرنج في القرون الوسطى لمثلهم . فانهم كانوا يحرقون المجانين ويذيقون المجانين اصناف العذاب فيلاقون أجلاً عاجلاً .

وقد اهتم اولو الامر من كانوا يعيشون بعيداً عن العمران والمدن الكبيرة لصعوبة السفر وتعذر وسائل النقل فهيأوا لهم مارستانات خاصة تحمل اليهم وتقوم بحاجاتهم . « في ايام عضد الدولة كتب الوزير علي ابن عيسى الى سنان بن ثابت رئيس الاطباء توقيعاً يقول فيه : — « ذكرت في من في السواد من اهله . فتقدم ، امدّ الله في عمرك ، باتفاذ مطببين وخزانة للادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منهُ مدّة ما تدعو الحاجة اليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون الى غيره » اه [٣٤]

ولم يحرم المسجونون والمجرمون حظ العناية بأجسادهم في ايام محنهم . فان الوزير علي بن عيسى نفسه كتب الى عامله المار ذكره توقيعاً آخر يقول فيه : — « فكرت ، امدّ الله في عمرك ، في من في الحبوس وانهُ لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ان تنالهم الامراض لوهم ممنوعون عن التصرّف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فما يعرض لهم فينبغي ان تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحمل اليهم الادوية والاشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ويريحون عللهم » اه [٣٥] وكل ذلك جرى في القرن الثالث الهجري

وكان للجيش الحظ الوافر من هذه الوسائل الطبية . ذكر عن عزيز الدين ابو نصر احمد ابن حامد لما تولى منصب الاستيفاء في أيام مغيث الدنيا والدين محمد « انهُ من جملة مبتدعاته في

الخير جعل للعسكر السلطاني مارستاناً يحمل آلاته وخيمهُ وأدويتهُ والأطباء والمرضى متنا يحتى » اه[١٥] وفي رواية أخرى أربعون جملاً . وقد جعل عزيز الدين الطبيب أبا الحكم الغربي طبيباً على هذا المارستان[٧]

وكانت توجد المستوصفات وخزانات الشرابات والأدوية للاسعافات الاولية والحوادث الفجائية : منها ما أسسهُ احمد بن طولون فانهُ أول من أنشأ مستوصفاً من هذا النوع أقامه في مؤخر الجامع الطولوني . « ووضع فيه خزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وجعل عليها خادماً وأقام فيها طبيباً يجلس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة » اه[٨]

اما المارستانات العمومية فتشيد بعضها خاصةً لهذا الغرض على أحسن هندسة وترتيب وأوفى اتقان . والبعض الآخر كان في بادىء الأمر قصوراً فخمة تحولت الى ما يوافق حاجات المارستان

ولم يكن يراعى في هذه المارستانات الفرق بين غني وفقير وكبير وصغير وحقير . اذ انها فتحت ابوابها للجميع على السواء ويعامل الجميع فيها أحسن معاملة وبكل ما يمكن من الاعتناء والدقة . ومن الأدلة على ذلك ما ذكره الظاهري حيث قال : — « وفي دمشق مارستان لم يُرَ مثله في الدنيا قط . واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي اني دخلت دمشق في سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م) وكان يصحبني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة . وكان قاصداً الحج في تلك السنة فلما دخل المارستان المذكور ونظر ما فيه من المأكل والتحف واللطائف التي لا تحصى قصد اختبار حاله . فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردد عليه ليختبر ضعفه فلما حس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلو والاشربة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة معناها ان الضيف لا يقيم فوق ثلاثة ايام وهذا في غاية الحذاقة والظرافة . وقيل ان المارستان المذكور منذ عمر لم يطفأ فيه النار » . اه[١٤]

وكانت هذه المارستانات كاملة العدة والعدد فيها الاسرة الكاملة الكسى ، الفائقة النظافة . خصصت فيها ابهاء وحجرات بالرجال وغيرها بالنساء وبكل من الامراض على انواعها . وجرت فيها المياه بغزارة . وأفرد فيها مكان لطبخ الطعام وآخر لاعداد الادوية

ولكل منها اوقاف دارة ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة . ووضعت تحت مراقبة شديدة لتأمين نفقاتها حتى لا يقع حيف على المرضى الذين يلجأون اليها . ذكر ثابت بن سنان في تاريخه عن والده سنان وكان رئيس المارستان العضدي ما يأتي : — « وكانت النفقة عن المارستان الذي لبدر المعتضدي بالمحرم من ريع وقف سجاع ام الخليفة المتوكل على الله وكان الوقف في يد ابي صقر وهب بن محمد الكلوزاني وكان قسط من ريع هذا الوقف يصرف الى بني هاشم وقسط منه ينفق على المارستان . وكان ابو الصقر يعجل على بني هاشم مالهم ويؤخر نفقة المارستان

صورة بانورامية لموقع الأرسحان الذي بناه الوليد بن عبد الملك بمدينة
[أخذت بكاميرا رقمية]

ويضيفها نكتب والدي الى ابي الحسن علي بن عيسى يشكو اليه هذه الحال ويعرفه ما لحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقام لهم من الفحم والدثار والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم . فوقع على ظهر رقعته الى ابي الصقر توقيعاً صورته : — أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جداً والكلام فيه معك خاصة فيما يفع منك ويلزمك وما أحسبك تسلم من الاثم فيه وقد حكيت عني في الهامشين قولاً لست اذكره . وكيف تصرفت الاحوال في زيادة المال او نقصانه ووفوره او قصوره فلا بدَّ من تعديل الحال فيه بين ان تأخذ منهُ وتجعل للمارستان قسطاً بل هو احق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ اليه وعظيم النفع به . فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة المارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد . فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في المارستان من المرضى والمسرورين بالدثار والكسوة والفحم ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة واجهد بما تكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حجتك وأعنَ بأمر المارستان فضل عناية ان شاء الله تعالى » . اه [٣٠] فتأمل

وكان منصب ناظر المارستان من أجل المناصب وأعلاها . « وكانت بالديار المصرية عادة القضاة فيها من أصحاب السيوف لاكبر الامراء » . [٣١] اه « وبدمشق لنيابة السلطنة وهي من اجل نيابات المملكة وارفعها رتبةً » . اه [٣٢]

وتوفر عدد الخدمة والمشتغلين للمرضى بالمارستان فأمنت بذلك راحتهم . ومن ادهش ما ذكر انهُ أقيم لبعضها المؤذنون الذين كانوا يحيون لياليهم بالنوبة بتسبيح الله نحو ساعة بصوت رخيم . وأطلق على هؤلاء لقب « مؤنس الغرباء او المرضى » . فالمريض الذي لا يقدر ان ينام ولا يجد في كل الاحيان من يحيي الليل لاجله كان يشجيه المؤذن بصوته الرخيم في تسبيح الباري تعالى في ساعات الليل الاخيرة [٧]

ومما هو جدير بالذكر ان أكثر هذه المعاهد كانت تشاد بالقرب من مسجد ويقام بجوارها حمام وتكية فكأن اولي الامر ارادوا بذلك ان تكون جميع هذه المعاهد الخيرية متجاورة بملاصقة ليصير من مجموعها وحدة كاملة على مداواة الاجسام والنفوس وضامنة للرقي المدني والديني معاً

وكانت رتبة رئيس الاطباء في المارستان من الدرجة الاولى في مناصب الدولة . وكان لكل منها رئيس واطباء عديدون وجرَّاح وكحَّال وفاصد وصيدلي . وكان عمل رئيس الاطباء الاشراف على اعمال المارستان وامتحان سائر الاطباء ومنع لكل منهم ان يعمل في دائرة اختصاصه متى نجح في امتحانه . والاجازات الطبية قديمة العهد في تاريخ الطب العربي . واول ما نجدها في ايام الخليفة المقتدر بالله « الذي جرى في مارستانه في بغداد غلط على رجل

من العامة من بعض الاطباء فمات الرجل . فامر المقتدر بالله وزيره ابراهيم بن محمد بن بطحا ان يمنع سائر المتطببين من التطبيب الا من امتحنهُ سنان بن ثابت واذن لهُ بذلك وكتب لهُ رقعة بخطهِ بما يطلق لهُ من الصناعة . فصار الاطباء الى سنان وامتحنهم واطلق لكلٍّ منهم مايصلح ان يتصرف فيهِ وذلك في سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) . اه[٣٦] . ولنا مثال آخر من هذا النوع في عهد الملك العادل نور الدين زنكي . فانهُ فوض الى ابن ابي خليفة « النظر في امر الكحالين واعتبارهم وان من يصلح منهم لمعالجة امراض العين ويرتضيهِ يكتب لهُ خطهُ بما يعرفهُ عنهُ » . اه[٣٧]

اما معاينة المرضى ومعالجتهم فكانت تجري في المارستان على الصورة الآتية :—

كانت الاطباء تجلس على دكة وتعاين المرضى في ايام معينة من الاسبوع . فتكتب لمن يتوصف منهم اوراقاً يستدون عليها ويأخذون بها من المارستان الاشربة والادوية التي يصفونها لهم . اه[٣٨]

« ومن كان بحاجة الى الاستشفاء يسجل اسمهُ في سجل المارستان وتنزع ثيابه ويلبس ثياب المارستان ويوضع في سرير خاص وكل يوم يدور الاطباء على المرضى ويتفقدون احوالهم ويشيرون امورهم وبين يديهم المشارفون والقوام لخدمة المرضى فيكتبون لكلٍّ منهم ما يلزمهُ من المداواة والتدبير فلا يؤخر عنهُ ولا يتوانى في شيء من ذلك » . اه[٣٩] وكان الدليل على شفاء المريض مقدرته على أكل فروج ورغيف خبز فيأمر لهُ بالانصراف ويعطى بدلة ثياب ونفقة تكفيهِ مدةً بعد خروجهِ من المارستان

وكانت في كثير من هذه المارستانات غرفة خاصة فيها مكتبة تحتوي على الكتب الطبية يجلس فيها الرئيس وسائر الاطباء بعد الفراغ من معالجة المرضى ويجلس التلامذة معهم فيتذاكرون في كيفية الاستدلال على الامراض وجملة ما وصف وكتب للمرضى ثم يبحثون في كثير من الامراض ومعالجتها .[٤٠] فكانت المارستانات بتوفر هذه الوسائل معاهد علم يتقن فيها التلامذة العلوم الطبية علماً وعملاً

مارستانات دمشق

ذكر التاريخ انهُ كان بدمشق خمسة مارستانات وربما كان هناك اكثر منها لكن لم يذكر شيئاً عنها

الاول مارستان الوليد بن عبد الملك . الثاني المارستان الدقاقي . الثالث المارستان النوري . الرابع المارستان القيمري . الخامس المارستان الركني

مارستان الوليد بن عبد الملك

اندثرت معالم هذا الاثر . وذهب البعض الى ان موقعه خارج أحد أبواب دمشق المعروف بباب شرقي قرب ما يدعى اليوم « الاعاطلة » ومعالمهُ عبارة عن بناية لبن متداعية ذات غرف

صغيرة جداً قليلة النوافذ معدومة كل الوسائل الصحية ظل يجيس فيها المجذومون الى آخر شهر ايلول من سنة ١٩٣٦ م . وقد ادرك اولو الامر عدم ملاءمة هذا الموقع لايواء المرضى فبنوا مؤسسة جديدة خارج دمشق تقوم اليها . والاعاطلة اليوم مهجورة . والى ناحيتها الشرقية الجنوبية آثار قديمة هي عبارة عن حائط يبلغ طوله نحواً من خمسة عشر متراً . مبني بحجارة ضخمة عريضة وفيه فتحة بين كبيرين . وقد طمر التراب هذا الحائط الى منتصف فتحة الابواب . وفي جنوبيه طريق وشمالية ساحة واسعة تبلغ مساحتها نحواً من الف متر مربع فيها بقايا أعمدة رخامية ضخمة . والى الجهة الشمالية من هذه الساحة بستان فسيح الارجاء . فهل هي بقايا هيكل قديم حوّله الوليد الى مارستان . أم الامر غير ذلك ؟ ان البحث لم يصل بنا الى معرفة الحقيقة

الاسماء الرقاقي

ذكر هذا المارستان بعدة اسماء هي العتيق والقديم وباب البريد والنوري الصغير . فهل يا ترى هذه الاسماء هي لمارستان واحد ام لاكثر من واحد ؟ قال دقاق بن تنش الذي يظن انه منشىء هذا المارستان عاش في القرن الخامس الهجري ولكن ورد ذكر هذا المارستان في حوادث القرن الرابع[١٠] ويذهب العلوي[٥] والعماد[١٦] الى انه من عمارة الامويين وان الذي عمره معاوية بن ابي سفيان او ابنه يزيد وهذا لا يتفق مع قول المؤرخون الذين سبقوا العماد واتفقوا على ان اول من أسس مارستاناً في دمشق هو الوليد بن عبد الملك[١] ولا يخفى ان الوليد اتى بعد معاوية

اما موقعه فكان غربي الجامع الاموي المشهور تحت المنارة الغربية الى الجنوب من المراحيض في سوق المسكية ويفصل بينه وبين الجامع سوق القوافين . بقي عامراً الى اوائل القرن التاسع الهجري وقال العماد والعلوي ان اول من خرب معالمه وجعله بيتاً ابو الفضل الاختائي ، ثم ملكه بعده اخوه برهان الاختائي ، ثم سكنه الشيخ كمال العجمي ، ثم اتصل بالياس كتخدا عيني باشا فعمره وغير معالمه . وقد ذكر ابن جبير في رحلته : « وبها (اي بدمشق) مارستان قديم وحديث والقديم هو غربي الجامع المكرم » . اه[١١] وقال ابن ابي اصيبعة في ترجمة رشيد الدين ابن خليفة : « وفي الخامس من المحرم سنة ٦١٥ هـ . استدعاه (اي رشيد الدين) الملك العادل ابو بكر ايوب لما عزم بتحصيله وسيره وولاه طب المارستانين بدمشق اللذين وقفهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي » . اه[٣١] وفي ترجمة عز الدين السويدي قال : « وخدم ايضاً في المارستان بباب البريد » . اه[٣٢]